# النقد الأدبي الحديث والمعاصر

**المحاضرة الرابعة: النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة في كتابه: "الغربال"**

**الرابطة القلمية:** هي جمعية أدبية عربية أمريكية أسسها في نيويورك جماعة من الأدباء العرب المهاجرين في أمريكا، وكانت تهدف إلى إحداث تغيير في الكتابة الأدبية العربية قوامه؛ تطوير اللغة العربية والأدب العربي، بما يتناسب مع العصر ووفق المبادئ الرومانسية، وانتشالهما من الجمود والركود اللذين ضربا عليهما منذ قرون.

وقد بدأت فكرة الرابطة عام **1916** غير أنها تأسست رسميا في **20** أفريل **1920**، وقد عين **جبران خليل جبران** عميدا لها، و**ميخائيل نعيمة** مستشاراً، و**وليم كاتسفليس خازنا**، إضافة إلى سبعة أعضاء هم: إيليا أبو ماضي ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد ورشيد أيوب وندرة حداد ووديع باحوط وإلياس عطا الله. وقد ميزت أعمالهم مجموعة من الصفات منها؛ التأمل في الحياة وأسرار الوجود والتعمق في فهم النفس الإنسانية واتساع النظرة إلى المجتمع البشري والتعلق بالوطن العربي، والاتجاه إلى الرمز وفي التعبير. وقد تفككت الرابطة بمجرد وفاه عميدها جبران سنة **1932**.

**1. ميخائيل نعيمة:** ولد ميخائيل نعيمة في قرية بسكنتا بجبل لبنان عام **1889**، وعندما بلغ الثامنة عشر من العمر سافر إلى الناصرة بفلسطين لاستكمال دراسته بمدرسة المعلمين الروسية، وبعد إتمام دراسته بها استفاد من بعثة علمية على نفقة إدارتها وكانت وجهته روسيا وبالضبط "بلوتافا"؛ حيث درس في كليتها خمس سنوات، اتجه بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام **1911** واستقر في واشنطن التي التحق بجامعتها لدراسة الحقوق والآداب إلى عام **1916**، وأخذ ينشر مقالات وقصصا في مجلة "الفنون" ولم يلبث أن راسله صاحبها نسيب عريضة ودعاه للقدوم إلى نيويورك، فلبى دعوته، وهناك تعرف على الأدباء الذين أسس معهم" الرابطة القلمية"، وفي عام **1918** انخرط في الجيش الأمريكي وذهب إلى ساحة الحرب بفرنسا، حيث استغل الفرصة لسماع محاضرات في فرنسا وبلجيكا، وبعد نهاية الحرب انسحب نعيمة من الجيش وعاد إلى نيويورك وبقي فيها **13** عاماً أسهم خلالها في نشاط الرابطة الأدبي بينا كان يشتغل موظفا في متجر براتب بسيط، وبعد وفاة جبران عاد نعيمة إلى لبنان حاملا كتبه المخطوطة،

من بينها؛ "ديوان" همس الجفون"، وقصص؛ "كان ما كان"، و" المراحل" و " مذكرات الأرقش"، وفي لبنان صدر له" زاد المعاد " و"كرم على الدرب" و"البيادر" و" لقاء" و"الأوثان" و"جبران خليل جبران" و " في مهب الريح" و"صوت العام والنور والديجور" و" مرداد" و" دروب" و" أكابر "وكتابه الأخير" أبعد من موسكو ومن واشنطن، أما ما طبع له في مهاجره فنجد؛ مسرحية " الآباء و البنون" وكتاب" الغربال" الذي نحن بصدده.

2. **كتاب الغربال:** صدر كتاب الغربال في طبعته الأولى سنة **1923**، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات النقدية كان قد انشرها نعيمة في الصحف، أو كتبها كمقدمات لبعض كتبه، وقد بلغ عددها **21** مقالا، وتنوعت مواضيعها؛ فكان منها ما خصص للهجوم على الأدب العربي المستمسك بالتقليد الأدبي القديم مثل مقالي: "الحباحب" و"نقيق الضفادع"، والثورة على العروض التقليدي في مقال "الزحافات والعلل"، ومنها ما تناول فيه بالنقد التطبيقي مؤلفات أدبية صدرت وقتها من مثل دراسته الديوان رشيد سليم الخوري" القروبات"، وديوان الريحان في عالم الشعر"و ديوان" السابق" لجبران، إلى جانب دراسته لقصة "ابتسامات و دموع" التي ترجمتها مي زيادة عن كتاب "الحب الألماني" لماكس مولر، وديوان" أغاني الصبا" لمحمد الشريقي، وكتاب" النبوغ" للبيب الرياشي"، وترجمة خليل مطران المسرحية" تاجر لبندقية "لشكسبير، وكتاب" الديون" للعقاد والمازني، وكتاب "العواصف الجبران، وكتاب "الفصول" للعقاد، ثم مقالا عن ديوان الأرواح الحائرة" لنسيب عريضة كان لا يزال مخطوطا، ثم مقالا عنيفا بعنوان "الدرة الشرقية" انتقد فيها نقداً حاداً قصيدة لشوقي كانت قد نشرتها مجلة "الهلال" في عدد أبريل سنة **1922**.

وإلى جانب ذلك، ضم الكتاب مقالات عن النقد البناء وهي المقالات التي تناول فيها "الغربلة" و "نور الأدب" و"الرواية التمثيلية العربيه" و"المقاييس الأدبيه" و"الشعر والشاعر" ثم مقال" فلنترجم" الذي دعا فيه إلى ضرورة الترجمة عن الآدب الأجنبية.

3. **كتابا الغربال والديوان:** تزامن ظهور كتاب الغربال مع كتاب الديوان، حيث صدر هذا الأخير سنة **1921**، وصدر بعده الغربال سنة **1923**، وهما كتابان يشتركان في نزعتهما الثورية على المدرسة المحافظة ودعوتهما إلى التجديد في الأدب، مما يدعو إلى التساؤل عن إمكانية تأثر أحدهما بالآخر.

وفي هذا الصدد، يؤكد محمد مندور عدم حدوث هذا التأثر بينهما بناء على تصريح كل من المعتاد ونعيمة له شخصيا عن عدم وجود هذه الصلة التأثرية بينهما، وعزوهما هذا التشابه إلى الظروف المتشابهة التي عرضت للجانبين، متأثر بالآداب الغربية، وملاحظتهما لقصور اتجاهات الأدب العربي التقليدي من تلبية، التهابات العمر، فجاء مسار كل منهما تلقائيا يوازي الآخر في دوافعه وأهدافه.

4. **المنهج النقدي في الكتاب**: سار نعيمة في كتابه وفق منهج نقدي " تأثري ذاتي"، حيث يقول في مقاله المعنون بــ "الغربلة":" إن لكل ناقد. غرباله، لكل موازينه ومقاييسه، وهذه الموازين ليست مسجلة في السماء ولا في الأرض، ولا قوة تدعمها وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه، وقوة الناقد هي ما يبطن به سطوره من الاخلاص في النية والمحبة لمهنته والغيرة على موضوعه ودقة الذوق ورقة الشعور وتيقظ الفكر، وما أوتيه، بعد ذلك من مقدرة البيان لإيصال ما يقوله إلى عقل القارئ وقلبه".

فهذه الصفات تضمن للناقد المصداقية بين الناس، وتجعلهم يرضون نقده ويعتمدونه في تذوقهم للأعمال؛ فما استحبه استحبوه وما أستقبحه استقبحوه.

غير أن النقاد عنده طبقات، وهذا ما يجعل كل ناقد يستفرد بصفات خاصة به لا يشاركه فيها أحد، غير أنه يشترط في جميع النقاد على السواء صفة لا بد من توافرها في كل ناقد، إذا ما تجرد منها لا يعد ناقدا وهي: "قوة التمييز الفطرية" الى توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين "، لأن النقد، في نظره، ليس قواعد ثابتة نميز بها الصحيح من الفاسد، إذ لو كان كذلك لاستطلاع كل قارئ أن يطبق هذه القواعد المطلقة على ما يقرأه ويستغني عن النقد والنقاد.

ولكن عمل الناقد ضروري جدا لأن أذواق أغلب الناس تشوبها الميول الخاطئة والفاسدة إلى غير المسلك الصحيح في الآداب، فيقوم الناقد بتخليص الذوق من هذه الشوائب وهديه إلى ما يقومه ويهذبه ويرقيه، ويجعله سليماً يمكنه التفريق بين الجودة والرداءة بما يتماشى مع حقيقة الأعمال وطبيعة الجمال.

* فالنقد عند نعيمة عملية تمحيصية تهدف إلى التمييز بين صالح الأعمال الأدبية وطالحها، وبين جميلها وقبيحها وصحيحها والفاسد.

وقد شبه عملية النقد بالغربلة"، لذلك" وكما أن مغربل الحبوب ... لابد من أن يسقط من ثقوب غرباله بعض الحبوب الصالحة مع الطالحة، وتبقى فيه حبوب طالحة مع الصالحة، هكذا الناقد لا ينجو من زلة أو هفوة، فقد يرى القبيح جميلا، أو حسب الصحيح فاسدا.. ".

إن النقد إذن هو غربلة، والناقد مغربل، لكن غربلته، كما يرى نعيمة، لا تمس بالناس، بل هي غربلة لما يدونه الناس من أدب، فمهنة الناقد إذن هي غربلة الآثار الأدبية لا غربلة أصحابها. وفي هذا الصدد يقول "كذلك الناقد الذي لا يميز بين شخصية المنقود وبين آثاره الكتابية ليس أهلا لأن يكون من حاملي الغربال والدائنين بدينه".

كما يذهب إلى أن النقد سنة الطبيعة وبذلك هي سنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة فيقول: "فالغربلة سنة من السنن التي تقوم مها الطبيعة والطبيعة أكبر مغربل أولا تراها في كل حالاتها تنبذ وتحتضن؟ ألا تراها في الشتاء تكفن الأرض بالثلوج أو تغمرها بالغيث لتحفظ من الفساد ما في رحمها من جراثيم الحياة، وإذ يأتي الربيع تحول الثلج ماء، وترسل ما زاد منه عن حاجتها إلى البحور، وما بقي تبعثه مع حرارة الشمس إلى الباب الحبة قوة تنشط بها من الموت إلى الحياة، وعندما تنبثق الحياة أوراقاً وأزهاراً تحتفظ بالأزهار إلى أن تتكون الأثمار، فتبعثر الأزهار وتبقي الأوراق ستاراً للأثمار إلى أن تنضج، وإذ تنضج الأثمار تذري الأوراق وتعبث بالقشور لتعود وتحضن الحبة من جديد".

وهذا المنهج لا يكتفي بالتفسير والتقييم، بل يرى نعيمة فيه إبداعاً وابتكاراً حيث يقول: "إن الناقد مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينفده عن جوهر لم يهتد إليه أحد حتى صاحب الأثر نفسه فكم سألت نفسي من هذا القبيل. ليت شعري هل درى شكسبير يوم خط رواياته وأغانيه أنها ستكون خالدة؟ أم تراه وضعها يقضي بها حاجة وقتية ظن أنها ماتت بموته؟ إنني من الذين يرجحون الرأي الثاني لذلك يجلون الناقدين الذين (اكتشفوا) شكسبير بعد موته إجلالهم للشاعر نفسه إذ لولاهم ما كان لنا شكسبير. وفي اعتقدي أن الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة في كل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحي موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها لروح كبيرة مثلها. ثم إن الناقد مولد لأنه فيما ينقد ليس في الواقع إلا كاشفا نفسه. فهو إذا استحسن أمرا لا يستحسنه لأنه حسن في ذاته، بل لأنه ينطبق على آرائه في الحسن. وكذلك إذا استهجن أمراً فلعدم انطباق ذلك الأمر على مقاييسه الفنية.

ولعل انسياق نعيمة وراء التأثرية الذاتية في النهج النقدي يعود إلى الروحانية التي استلهمها من ثقافته الروسية والتي تجلت بوضوح عند أعلام الأدب الروسي البارزين من أمثال: تولوستوي و دوستويفسكي، إلى جانب تشبعه بالروح الدينية المسيحية وتشربه الشعرية نصوصها وسحر تعبيرها.

5. **المقاييس الأدبية**: على الرغم من إثبات نعيمة للمنهج التأثري الذاتي في النقد، وإقراره بتفاوت العمليات النقدية بتفاوت النقاد، إلا أن هذا لم يمنعه من استخلاص بعض المقاييس الأدبية العامة التي يهتدي إليها الناقد إذا أمعن النظر في وظيفة الأدب في الحياة؛ وبالنظر إلى فترة ظهور الكتاب فإن نعيمة قد ركز في هذه المقاييس على حاجة عصره إلى ما يقوي من الروح الفردية وينشر الوعي القومي خصوصا مع الاطلاع الواسع على الآداب الغربية ذات المنحى الرومانسي؛ وهي تتلخص عنده في أربعة مقاييس:

1. الحاجة إلى الإفصاح عن خلجات النفس في تراوحها بين اليأس والرجاء، بين الخوف والطمأنينة، بين الحب والكراهية بين النجاح و الفشل... بصدق تام.
2. الحاجة إلى الاهتداء بنور الحقيقة الداخلية والخارجية، ورغم نسبية الحقيقة وتفاوتها من زمن إلى آخر، إلا أنه توجد حقائق أزلية ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة.
3. الحاجة إلى الجمال، وفي هذا الشأن يذهب إلى أنه وعلى الرغم من اختلاف الأذواق في الحس الجمالي، إلا أن الاعتراف بجمال الحياة المطلق لا يقع فيه اختلاف.
4. الحاجة إلى الموسيقى فالإنسان فطر على حب الأصوات المتجانسة المتناغمة، الطبيعية والاصطناعية منها على السواء، كما فطر على الانزعاج من الأصوات المتنافرة الناشرة.

هذه إذن، هي "المقاييس الثابتة التي يجب أن نقيس بها الأدب، فتكون قيمته بمقدار ما يسد من بعض هذه الحاجات أو كلها، ويكون أثمنه أجلاه بياناً وأغناه حقيقة وأطلاه رونقاً وأشجاه وقعاً".

6. **مشكلة اللغة**: هاجم نعيمة في كتابه الأدباء والنقاد المتزمتين في اللغة وقواعدها وعلومها، ونعت لغتهم بـ" نقيق الضفادع"، ودعا إلى التبسيط في اللغة وتوخي السلاسة والعذوبة بدل الحوشية والغرابة، لكي تتمكن اللغة من تحقيق الوظيفة المنوطة بها في الأصل؛ وهي عنده؛ التعبير عن أفكار الناس وبث أحاسيسهم.

غير أن هذا الطرح لم يخرج نعيمة من اللغة الفصحى إلى العامية، وإن كان يبالغ في عد اللغة بجرد رموز توسطية لا يجب أن تستأثر باهتمام المبدع. وقد سجل العقاد مخالفته لرأي نعيمة في تقديمه لكتاب "الغربال" حين يقول" أما كلمتي أنا ففي خلاف صغير بيني وبين المؤلف لا أعرضه للمناقشة إلا أن الاتفاق بيننا في غير هذا الموضع عظيم وزبدة هذا الخلاف أن المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولا ويرى أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ ما دام الغرض الذي يرمي إليه مفهوما، واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيدا ويعن له أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء في اشتقاق المفردات، وارتجالها [...] فرأيي أن الكتابة الأدبية فن والفن لا يكتفي فيه بالإفادة ولا يغني فيه مجرد الإفهام ... وأن مجاراة التطوير فريضة وفضيلة ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم فتخلق قاعدتها وأصولها في طريقنا، وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماض وقواعد وأصول. ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها؟؟"

والملاحظ أن ميخائيل نعيمة لم يخرج عن الفصحى في أدبه ما عدا ما أنطق به أحيانا شخوص مسرحيته" الآباء والبنون" تماشيا مع مستوياتها الثقافية، كما لم يخرج عنها أدباء المهاجر.

7. **النقد التطبيقي**: جسدت المقالات التي خصصها نعيمة أنقد المؤلفات نقداً تطبيقياً منهجه التأثري الذاتي، حيث نلقيه يتهجم على الأدب التقليدي الإحيائي وعلى رمزه "شوقي" في مقاله المعنون بـ "الدرة الشوقية"، وينحاز إلى الاتجاه التجديدي في الأدب الذي أسهم فيه أعضاء "الديوان".

ولا بد في الختام من الإقرار بفضل نعيمة الكبير في توجيه الأدب العربي الحديث إلى سبل الاستحداث وقيادته في طريق التخلص من القيم الأدبية البالية، والمساهمة في بناء الصرح الأدبي الحديث، فلم يكن يعادل جهوده إلا جهود العقاد في "الديوان".